المحاضرة الثالثة:

النقد الانطباعي (مفهومه، مجالاته، نماذج من نصوصه)

النقد الانطباعي: هو نقد ينم عن أشخاص يحتكمون إلى أذواقهم، وأمزجتهم. فعادة ما تعكس أحكامهم النقدية« انفعالاً أولياً إزاء الأثر الأدبي، وتعبيراً عن ذلك الانفعال في عبارات تناسبه سذاجة وأوّلية »[1]. فالمتتبع للنصوص النقدية العربية في بواكير نشأة العملية النقدية، سيجدها تعبيراً انطباعياً عمّا يتداولونه من إنشاد بعضهم، و ما يروجونه من أشعار في الأسواق والمجالس العامة. وقد اتخذ النقد الجاهلي اتجاهين في مجال إصدار الحكام.

*الاتجاه الأول: انصبّ فيه الحكم على الشعر؛ إذ انصبت الأحكام النقدية على الألفاظ وطبيعتها، وعلى قوة المعاني، وكذلك على بناء الصورة الشعرية.

*الاتجاه الثاني: انصبت فيه الأحكام على الشعراء من خلال المفاضلات والموازنات، وكانت الألقاب تخلع على القصائد تارة، وعلى الشعراء تارة أخرى. فسمّوا قصائدهم بالمقلدات، والمنقّحات، والمحكمات. كما سمّوا شعراءهم بألقاب دلّت على حسهم النقدي التأثيري النابع عن عاطفة جياشة وذوق فطري خالص، فوجدنا منهم المرقش والمهلهل والنابغة...

وتذكر المصادر والكتب أنّ النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة من جلد في سوق عكاظ، فيأتيه الشعراء ويعرضون عليه أشعارهم، ويتناشدون ويتساجلون، وينتقد بعضهم بعضاً.

لقد كان الناقد الجاهلي يحتكم إلى ذوقه الفني دون الاكتراث بالتحليل والتعليل والاستنباط« فهو نموذج يجمع بين النظرة التركيبية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلّي دون اللجوء إلى التعليل، وتصوير ما يجول في النفس بصورة أقرب إلى الشعر نفسه »[2].

نماذج من نصوص عن النقد في الجاهلية:

من أقدم ما عرف من الآراء النقدية في العصر الجاهلي، ما أخذه طرفة بن العبد على المتلمس حين سمعه يقول:

وقد أتناسى الهمّ عند ادّكاره بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال طرفة: استنوق الجمل. فضحك الناس[3]. لقد عاب عليه قول (الصيعرية)، وهي سمة تكون في عنق النوق لا الجِمال. وقد وظّفها المتلمس توظيفاً لا يليق بالسياق والمقام.

كما عاب النقاد على الأعشى تضمينه المعنى الواحد بألفاظ مكررة في قوله:

---

[1] - السعيد الورقي، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. ط، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 2009، ص 3.
[2] - إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 13.
[3] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 88.

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني   شاوٍ مشلّ شلول شلشل شول

فالنعوت التي أوردها الأعشى في بيته هذا، لا تتجاوز المعنى الواحد في وصفها لحالات الترنح والسُكر التي انتابت الندماء في مجلس الخمرة. وهذا الرأي صادر دون الاحتكام المسبق إلى مقاييس مألوفة أو أصول ثابتة.

وتطرق النقاد أيضاً في الجاهلية إلى عيوب الكلام؛ كالإقواء، احتكاماً إلى وقْع الشعر في السمع، قصد ضبط إيقاع قصائدهم. فحين قدم النابغة الذبياني إلى المدينة أنشد قائلاً:

من آل ميّة رائح ومغتدي   عجلان ذا زاد وغير مزوّدِ
زعم البوارح أنّ رحلتنا غداً   وبذاك حدّثنا الغراب الأسودُ

فجيء بجارية تتغنّى بالبيتين مع إشباع حرف الدال وإطالته، ففطن النابغة إلى هنته، فعدّل من شطر البيت الثاني قائلاً: وبذاك تنعاب الغراب الأسودِ[1].

وفي موضع آخر يحكم النابغة الذبياني في سوق عكاظ لحسّان بن ثابت بأنه شاعر، ثم يقدّم له بعض التصويبات على معاني شعره وأساليبه. فحدث أن قال حسّان:

لنا **الجفنات** الغرّ يلمعن بالضحى   و**أسيافنا** يقطرن من نجدة دما
ولـــدنا بني العـــنقاء وابني محـرّق   فأكرمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة: إنك لشاعر. إنك قلّلت الجفنات، ولو قلتَ الجفان لكان أكثر، وقلتَ يلمعن في الضحى، لأنّ يبرق في الدجى أبلغ في المديح، فالضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلتَ يقطرن من نجدة دما لدللت على قلة القتل، ولو قلتَ يجرين لكان أكثر انصباب الدم، وفخرتَ بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسّان متكسّراً منقطعاً[2]. فالنابغة أبدى بعض الملاحظات التي تزاوج بين نقد المعاني والألفاظ والأسلوب، إلاّ أن الإنسان الجاهلي لم تكن له دراية مسبقة بجمع القلة أو الكثرة. فهذه الوقائع على كثرتها، تحمل في ثناياها صوراً من النقد الساذج الذي يحتكم فيه الناقد إلى سليقته وذوقه الفطري، ليصدر أحكاماً خالية من العلل والأسباب.

ومن أقدم ما عرف من الآراء النقدية في العصر الجاهلي، حكومة أم جندب الطائية بين امرئ القيس وعلقمة بن عبدة، فقد ذكر ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) أن علقمة بن عبدة وامرئ القيس تنازعا في الشعر، فاحتكما إلى أم جندب زوجة ذي القروح، فقالت: قولا شعراً على روي واحد وقافية واحدة، صِفا فيه الخيل. فقال امرؤ القيس:

خليلي مُرّا بي على أمّ جندب   لنقضي حاجات الفؤاد المعذّب

فقال علقمة:

ذهبت من الهجران في غير مذهب   ولم يك حقا هذا التجنّبِ

---

1 - المصدر نفسه، ص 141.

2 - ينظر: المصدر السابق، ج6، ص145. النص مذكور أيضاً في الأغاني، ج8، ص194.

ثم أنشداها جميعاً، فقالت لامرئ القيس: علقمة أشعر منك! قال وكيف ذلك؟ قالت" لأنك قلتَ:

فللسوط ألهوب وللساق درّة وللزجر منه وقع أخرج مذهب

فجهدت فرسك بسوطك، ومريته بساقك. وقال علمقة:

فأدركهن ثانيا من عنانه يمرّ كمرّ الرائح المتحلّب

فلم يضربه بسوط، ولم يمره بساق، ولم يتعبه بزجر[1].

وهكذا بنت أم جندب حكمها في المفاضلة على الصورة النمطية التي تتشكل من خلال معرفة الإنسان الجاهلي بما حوله؛ أي بالنظر إلى مدى مطابقة الشعر مع الصورة الواقعية « وبقدر ما يحسن الشاعر من محاكاة الصور النمطية، بقدر ما يعتبر شعره فنياً راقياً »[2].

وعلى هذا الأساس بنيت تصورات العرب على المفهوم الفني للشعر؛ فالمخيال الجمعي العام هو أساس المجالس الأدبية التي عرفها العصر الجاهلي، أي أن جملة الأحكام النقدية عند الجاهليين، كانت مبنية على الحس الذاتي للناقد، وهو حس يستند أساساً إلى خبرة الناقد من حيث مطابقة الأحكام للمثل الفني العام والسائد في البيئة الجاهلية.

***خصائص النقد الجاهلي:**

- الذاتية والابتعاد عن الموضوعية.
- الجزئية، فالنقد الجاهلي لا ينصب على النص ككل، بقدر ما يهتم بالبيت أو البيتين أو اللفظة أو اللفظتين.
- عدم التعليل: أي أنّ الناقد الجاهلي كان يصدر الأحكام بالاستحسان أو الاستهجان دون تعليل، وإذا اضطرّ إلى التعليل، نراه كثير الإيجاز، وفي غاية البساطة والوضوح؛ فعادة ما يكتفي الناقد في حكمه النقدي بعبارة موجزة دون إعطاء تفاصيل. ومن أمثلة ذلك: استنوق الجمل.
- نلاحظ في النقد الجاهلي نزعة المقارنة بين شاعر أو أكثر، وتفضيل واحد على الآخرين.
- تجنح الأحكام النقدية الجاهلية إلى المبالغة، فإما مدح مفرط، وإما ذم مفرط.
- بدا النقد الجاهلي على شكل قبسات جمالية، وأحكام انفعالية تخلو من التعليل والتفسير.

***النقد الانطباعي في صدر الإسلام:**

لقد كان ظهور الإسلام حدثاً جليلاً، وانقلاباً جذرياً في حياة العرب من النواحي الاجتماعية، الأدبية، والدينية... فانقلبت المقاييس وتبدلت القيم، وتغيرت مقومات الحياة العربية في شتى الميادين. وبظهور الإسلام بدأت تتجلى للعيان بعض الملاحظات النقدية، وبعض التعليقات والمواقف التي حددت بشكل بيّن موقف الدين الجديد من الشعر والشعراء.

وكان للقرآن الكريم والسنة النبوية أثرهما في التوجيه الديني والأخلاقي للموضوع الشعري وغرضه من حيث الرفض والقبول. ولم يكن الرسول (ص) بغافل عن تأثير الشعر في نصرة

[1] - ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج6، ص145. النص مذكور أيضاً في الأغاني، ج8، ص194.
[2] - قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان، ص 25.

الدعوة المحمدية وترسيخ مبادئ الإسلام والدين الجديد. ولذلك قال لحسان بن ثابت:« أُهجهم فإنه يعينك عليهم روح القدس »[1].

لقد صقلت النزعة الإسلامية الذائقة العربية، فخفت حدة العصبية، وخبت النعرات والضغائن التي تذكّر بدعاوى الجاهلية. وكان الرسول (ص) أول من حثّ على تحكيم الأخلاق في نقد الأشعار، إذ كان (ص) يتفاعل مع الشعر الحسن والكلمة الطيبة، فعبّر عن إعجابه بقصيدة كعب بن زهير قائلاً:« إنّ من البيان لسحراً، وإنّ من الشعر لحكمة ». فاتضح للعيان أن الرسول (ص) تذوق المعنى الشعري، وتجاوب معه، فعبّر عن رضاه من خلال صفحه عن كعب، فاصطفاه كأبرز شعراء الدعوة، كما أبدى النبي (ص) إعجابه بالإباء العربي الذي تضمنه قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

فعلق قائلاً: ما وصف لي أعرابي أحببت أن أراه إلا عنترة[2]. كما كان النبي (ص) يتمثل بقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وفي موقف آخر، أبدى الرسول (ص) سخطه من ذي القروح، فروى ابن قتيبة عن ابن الكلبي قال: اقبل قوم من اليمن يريدون النبي (ص)، فأنشدوه بيتين من شعر امرئ القيس، فقال (ص):« ذاك رجل مذكور في الدنيا، شريف فيها، منسي في الآخرة يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار»[3].

وهكذا، أبدى الرسول (ص) عن حبه للشيم العربية، والخصال الكريمة التي تغنّى بها طرفة بن العبد وعنترة، ليظهر امتعاضه من شعر امرئ القيس وشخصه المتمادي في الترف والتغزل بالنساء. فكان (ص) يتذوق المعنى الشعري، وينفعل لمعانيه وفصاحته.

وإذا تدبرنا الأغراض الشعرية في عصر الرسول (ص)، وجدناها لا تخرج في شكلها ومضمونها عمّا كانت عليه في الجاهلية، إلاّ من حيث التنوع في الأغراض. وقد تخصص الشعراء في غرضين اثنين هما: الهجاء (هجاء المشركين)، والمدح (مدح الرسول (ص)، وآل البيت).

فالإسلام دين توحيد، وقد عمل كلٌّ ما في وسعه لتوحيد العرب، وضم قبائلهم المتناحرة، وسل الضغائن من صدورهم، والغاية من وراء ذلك هي تجنيد كل قواهم وتوظيفها في سبيل خدمة الدين الجديد وتحقيق أهدافه.

---

[1] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج4،ص145.
[2] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص67.
[3] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص67.

أما في العهد الراشدي، فقد أسهمت عدة عوامل في التقليل من دواعي قرض الشعر بسبب الفتوح وانتشار الإسلام، فقلّت المساجلات التي كانت تدور بين الشعراء، وتجلّت الحركة النقدية في مواقف الخلفاء الراشدين أنفسهم من الشعر والشعراء، فصنّفوه ما بين حسن مفيد وقبيح مذموم.

وقد ذكر ابن رشيق القيرواني أنّ عمر بن الخطاب كان من أنقد أهل زمانه للشعر، وأنفذهم فيه معرفة[1]؛ فعمر بن الخطاب كان مقتنعاً بأنّ خير ما يثقف الناشئة هو تعلم الشعر، لما في تعلّمه من فضائل كثيرة، فقد أثر عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري يقول له:« مر من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معاني الأخلاق، وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »[2].

ولعمر بن الخطاب مواقف مشهورة مع الشعراء، تنم عن حس نقدي وبصيرة بأسرار الصناعة الشعرية، فذكر ابن قتيبة أن الحطيئة جاور الزبرقان بن بدر، فلم يحمد جواره، فتحوّل عنه إلى بغيض فأساء جواره فقال يهجوه:

ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلاً ذا حاجة عاش في مستوعر شاس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنتَ الطاعم الكاسي

فأرسل عمر إلى حسان بن ثابت فسأله عن هذه الأبيات، فعلّق قائلاً: لم يهجه فحسب، ولكن سلح عليه. فحبسه عمر قائلاً: يا خبيث، لأشغلنّك عن أعراض المسلمين، فقال الحطيئة وهو محبوس:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيتَ كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر[3]

كما اتضح في مواقف أخرى بأنّ عمر يؤثر اللفظ السهل اليسير والصورة القريبة، والعبارة المسبوكة سبكاً محكماً. فقد أعجب بشعر زهير لكونه« لا يعاضل في الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه »[4].

كان معيار النقد عند الخلفاء الراشدين متأثراً بالمجالس الأدبية التي كانت تعقد في المجالس العامة والمساجد. وكان الصحابي ابن عباس يشارك الخلفاء في توجيه الشعر وجهة إسلامية، تبعده عن ماضيه الجاهلي، وتقرّبه من حاضره الإسلامي بمُثُله العليا وقيمه الأخلاقية. كما وجدنا في عصر الراشدين رافداً نقدياً ظل يغرف في أحكامه العامة من روح الانطباعية الجاهلية في تذوق الشعر والحكم عليه.

ولذلك كانت سطوة القديم الجاهلي طاغية على الأحكام النقدية في عصر صدر الإسلام، فدارت المواقف في مجملها على الصياغة والألفاظ بسبب امتداد الحركة النقدية في العصر الجاهلي. ويبدو أن كثيراً من الشعراء لم يستوعبوا فلسفة الدين الجديد وروحه استيعاباً صحيحاً؛

[1]- ينظر: ابن رشيق، العمدة، ج1، ص33.
[2] - المصدر السابق، ج1، ص 28.
[3] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص244.
[4] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج9، ص 147.

فضلوا يقولون الشعر على طريقة القدامى، ما دام الشعر الجاهلي بالنسبة لهم الأنموذج الذي يجب اتباعه والنسج على منواله.

وعموماً يمكن أن نلخص مآل الحركة النقدية في صدر الإسلام في النقاط التالية:

*يلاحظ في هذا العصر بأنّ الأخبار النقدية كثيرة، ولكن محصولها النقدي قليل.

*كان النقد منصباً على الشاعر أكثر من انصبابه على الشعر، كما كان منصباً أيضاً على سلوك الشاعر ومدى انعكاسه على شعره.

*لاحظنا بأن الذي اضطلعوا بوظيفة النقد في هذه الحقبة كان أكثرهم من الشعراء ـ باستثناء الرسول ـ ولكنهم كانوا من ضعاف الشعراء، وهم دون مرتبة الشعراء النقاد في العصر الجاهلي؛ كالنابغة مثلاً.

*كان أكثر النقد الذي حصدناه في هذه الحقبة منصباً على المعنى، من حيث قربه أو بعده من الدين أو الأخلاق. وقلّما كان منصباً على الصياغة.

* آثر النقاد في هذه الحقبة الشعر الموحد المتألهالنابذ للوثنية والفكر.

*سار النقد في هذه الحقبة في طريق الخير، ولذلك أصيب باللين والضعف من الناحية الفنية، فانعكس هذا الضعف على طبيعة الأحكام الموجهة في النقد.

ـالنقد الانطباعي في العصر الأموي:

لقد اتسعت دائرة النقد في هذا العصر بفضل الفتوح وحياة الاستقرار التي عرفها العرب في هذه الحقبة. أضف إلى ذلك انتقال الخلافة من الحجاز إلى دمشق، فازدادت بذلك حدة المعارضة في موقفها من الحكم الأموي. وكان لهذه العوامل أثرها الفعال على الحركة الشعرية والنقدية.

لقد نما الشعر الأموي في ثلاثة معاقل؛ الحجاز، العراق، الشام. ففي هذه البيئات ازدهرت الحركة النقدية تبعاً لألوان الشعر التي راجت فيها.

ـ**بيئة الحجاز**: عاش الحجازيون حياة مترفة، فانصبت الأحكام النقدية على غرض الغزل، بسبب شيوعه في الحواضر والبوادي (الغزل الماجن) الذي حمل لواءه عمر بن أبي ربيعة، ثم تبعه شعراء كثيرون من مكة والمدينة؛ كابن قيس الرقيات والأحوص... وبالمحاذاة ظهر الغزل العفيف في البوادي؛ فقاد لواءه كثيّر عزة، وجميل بن معمر.

وقد استتبعت هذه الطفرة الشعرية حركة نقدية سايرتها في الروح والذوق، فاشتغل النقد في الحجاز بالصورة الفنية، متأثراً بمقاييس الفقه والأخلاق والمبالغة في إصدار الأحكام. ودار أكثره في شعر عمر بن أبي ربيعة لارتباطه أساساً بالغناء.

وقد مثّل الحركة النقدية في بيئة الحجاز كل من ابن أبي عتيق، والسيدة سكينة بنت الحسين الدمشقية، وكلاهما صاحب مكانة دينية يحسب لها ألف حساب. وقد وصف طه حسين وضع المجتمع الحجازي في عهد الدولة الأموية قائلاً:« جلبت الحضارة جلباً إلى الحجاز وبلاد العرب، فكان الترف وكان التبطل، فكان الغناء والإيقاع والشعر الذي لا يصوّر جداً ولا نشاطاً، وإنما يصوّر بطالة وتهالكاً من أجل ذلك على اللذة، أو عكوفاً من أجل ذلك على النفس »[1].

وهكذا نزع عمر بن أبي ربيعة في شعره نزعة تحررية إباحية، مما عرّضه إلى نقمة بعض النقاد والفقهاء. وكان ابن أبي عتيق لا يتوانى عن نقد عمر على الرغم من تعصبه الشديد لشعره، وإعجابه به، فيروى أنه أنشد (عمر) ذات يوم:

بيــنما ينعتــنني أبصـــرنني دون قيد الميل يعدوني الأغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى؟ قالت الوسطى: نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيّمــتها قـد عــرفناه وهل يخفى القــمر

فقال ابن أبي عتيق: أنت لم تنسب بها، وإنما نسبت بنفسك، كان ينبغي أن تقول: قلت لها، فقالت لي، فوضعت خدّي فوطئت عليه[2].

-**النقد في بيئة العراق:** عني النقد بالجوانب اللغوية والنحوية والتقيد اللفظي والموازنات والدراسات القرآنية والسرقات الشعرية التي شاعت بفعل الصراع العصبي والفكري وانتشار حلقات العلماء في كل من الكوفة والبصرة. وكان شعر الفرزدق وجرير وذي الرمة مدار هذا النقد الذي كاد يخلص إلى الهجاء.

ارتكزت الحركة النقدية في المجالس العامة والخاصة، وكذلك في الأسواق والمساجد. وكان النحاة والخلفاء والأمراء يسهمون في إبداء الرأي متكئين على ميولهم الأدبية وأذواقهم الخاصة. وكانت المفاضلات تكاد تقتصر على الثلاثي (جرير، الفرزدق، الأخطل)، وكان النقاد يدلون بأحكام معللة تارة، وغير معللة تارة أخرى. إذ يروى أن الأخطل سُئل: أيّكم أشعر؟ قال: أنا أمدحكم للملوك، وأنعتكم للخمر والحُمُر؛ ، وأما جرير فأنسبنا وأشبهنا، وأما الفرزدق فأفخرنا[3].

كما أن للنحاة نصيبهم النقدي حين راحوا يُحكّمون الأسس والقواعد النحوية على الشعر، فوجدوا في شعر الفرزدق شواهد خصبة لنقدهم النحوي. وكان عبد الله بن إسحاق الحضرمي من أكثر النحويين تتبعاً لأخطاء الفرزدق، فحدث مرة أن قال:

وعضّ زمان يا بان مروان لم يدع من المال إلاّ مسحتاً أو مجلّفُ

[1] - طه حسين، الفتنة الكبرى، نقلاً عن قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان، ص 115.
[2] - الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص53.
[3] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص286.

فنقده ابن إسحاق قائلاً: كان من الواجب أن تقول مجلفاً لأنه معطوف على منصوب. فهجاه الفرزدق قائلاً:

لو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال ابن إسحاق: لقد لحنتَ، كان ينبغي أن تقول: مولى موالٍ لا مولى مواليا[1].

إن الملاحظ أن ابن إسحاق لم يكن مكترثاً بهجاء الفرزدق بقدر ما كان يهمه إبانة الخطأ الذي لحن فيه الشاعر.

وكان سوق المربد مركزاً لحلقات المناشدة بين الشعراء على اختلاف قبائلهم ومذاهبهم السياسية، فبرزت أشعار النقائض بين جرير والفرزدق والأخطل، وقد شجع الأمويون على إذكاء النعرات القبلية خدمة لمصالحهم السياسية. وقد نشأ عن هذه النقائض جدل علمي، تخللته حوارات أدبية ولغوية متعددة الوجوه والأبعاد. وكان النقاد يزاوجون بين النقد اللغوي الذي يعنى بالتقييد اللفظي والنحوي، ثم سرعان ما يتجاوزونه إلى أضرب النقد الفني المتصل بالعناصر الجمالية في الشعر.

-**النقد في بيئة الشام**: كانت بلاد الشام مقر الخلافة الأموية، ومن الطبيعي أن ينتشر غرض المدح بحكم علاقة الشاعر بالسلطة طلباً للكسب والحظوة. وكان الخلفاءيغدقون على الشعراء بالعطاء، فتحولت القصور إلى منتديات أدبية ونقدية. يقول الباحث خالد يوسف بهذا الصدد: «ولو تدبرنا شعر الشام، وفي العصر الأموي لألفيناه في مجمله شعراً سياسياً يخدم الأمويين بالمديح »[2]. وكان الأخطل من أشهر الشعراء مدحاً وتأييداً لسياسة الأمويين، ولذلك برزت كثير من الأحكام النقدية في مجالس الملوك والأمراء، فكانت أحياناً تتعارض بين رؤية الحاكم الداعية إلى التجديد، وعدم الاكتفاء بالتشبيهات النابعة عن ذوق بدوي خالص.

وكان عبد الملك بن مروان يلحّ في مجالسه على الفضائل النفسية المرتبطة بفن التشبيه، فيدعو الشعراء إلى الكف عن تشبيهه بالحية والأسد، إذ يروى أن الأخطل دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين قد امتدحتك، فقال: إن كنت شبّهتني بالحية والأسد فلا حاجة لي بشعرك[3]. وفي موضع آخر قال لذي الرمة: ما مدحت إلاّ ناقتك فخذ منها الثواب.

وفي أحايين أخرى التفت عبد الملك بن مروان إلى طبيعة الألفاظ والقوافي التي تخلّ بسلامة الشعر، فحدث أن سمع ابن قيس الرقيات يقول:

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعنني وقرعن مروثيه

---

[1]- أحمد أمين، النقد الأدبي، ج2، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ص 469.

[2] - خالد يوسف، في لنقد الأدبي وتاريخه عند العرب، ص 89.

[3] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص301.

وجببنني جب السنام ولم يتركن ريشاً في مناكبيه

فقال عبد الملك: أحسنت لو أنك خنثت في قوافيه[1].

كما تجلى النقد الأخلاقي عند الخليفة الخامس (عمر بن عبد العزيز)؛ إذ فرض على الشعراء ميزان الصدق والأخلاق تأسياً بالرسول (ص)، والخلفاء الراشدين، فحاول أن يعدل بالشعراء عن الغزل الماجن والهجاء اللاذع. وقد نفاه عمر بن أبي ربيعة إلى إحدى الجزر، بعد أن كان يتربص بالحاجّات وهنّ بلباس الإحرام. كما نفى الفرزدق من المدينة لتماديه في الفجور.

وفي عهد الوليد بن يزيد، تفنن الشعراء في وصف الخمرة والتغني بمحاسنها. وهكذا تفاوتت مقاييس الحكم النقدي في بيئات العصر الأموي على نحو يعكس ما ساد فيها من أحداث، وما اختلف فيها من أذواق وثقافات. وبتعدد بيئات النقد تنوعت الأحكام النقدية التي سارت نحو العلمية، واستنباط المقاييس على أساس التعمق والإدراك الواعي بخصائص الفن الأدبي ومقوماته.

وعموماً يمكن أن نجمل خصائص الحركة النقدية في العصر الأموي في النقاط التالية:

ـعرفت الحركة النقدية ثراء كبيراً في مجالس الخلفاء التي كانت حافزاً في بروز ملكات النقد، كما سمحت بإذكاء روح المنافسة بين الشعراء.

ـ كان لمجالس العلماء والرواة الدور الفعال في اتساع مجال النقد الأدبي، فاستحدثت مقاييس جديدة في الوزن والشكل والأسلوب، كما كان لهم الفضل في صيانة اللغة من العجمة واللحن والإسفاف، فراحوا يجمعون الشواهد اللغوية قياساً إلى سنن العرب في كلامها. وغدا تفضيل الشعراء يعتمد على أساس ما يتوفر في شعرهم من صحة لغوية ونحوية.

ـلاحظنا غلبة الرأي الذاتي على كثير من الأحكام النقدية، فمال النقاد إلى التعميم في أحكامهم، وقد ساد هذا التوجه بالأخص في بيئتيْ الشام والحجاز.

ـ تراجع المعيار الديني والخلقي في الحكم على الشعر والشعراء، وإحلال المعيار السياسي بدله، فاتخذ الشعر وسيلة للدعاية السياسية، قصد تثبيت الخلافة الأموية، ومجابهة معارضيها.

ـاعتماد الحركة النقدية في عصر بني أمية على الموازنات المعللة، فقد سعى النقاد إلى إبراز الشروط الفنية التي تبرز محاسن الأشعار في صور جميلة مستساغة.

ـالنقد الانطباعي في العصر العباسي:

استفاد نقاد العصر العباسي من الثورة النقدية التي جناها النقد العربي منذ العصور القديمة (الجاهلية حتى القرن الثالث الهجري)، فبنوا عليها نقدهم، وراحوا يلمّون شتاتها، فسجلوا هذا

[1] ـ المصدر السابق، ص 345.

الزخم التراثي، ودوّنوه في الكتب والمؤلفات« فنقل إلى السطور ما كان يجري على الألسنة وما كانت تحوي الصدور من ألوان المعرفة التي لم تقف عند ألوان الثقافة العربية »[1].

كما استفاد العباسيون من الثقافات الوافدة بفعل حركة الترجمة، وسرت تلك المعارف الأجنبية إلى الحركة النقدية والأدبية، فانصب النقد الأدبي على الفنون الأدبية الأخرى؛ كالكتابة والخطابة. ولقد سلكت الحركة النقدية في العصر العباسي مسلكين اثنين هما:

-**المسلك الأول**: قيام العلماء والرواة بجمع أشعار الجاهليين والإسلاميين، وتنقيحها وضبطها، وإبراز آرائهم فيها. فنقدوها نقداً إيجابياً تجاوز حدود التذوق إلى التفسير والتعليل، مبيّنين دواعي الاستهجان والاستحسان. وقد احتكم هؤلاء الرواة في مفاضلاتهم بين الشعراء إلى أذواقهم ومفهومهم للشعر. فمنهم من كان يميل إلى جزالة اللفظ، ومنهم من كان يميل إلى النحو ويشتغل به، فيتحمس لمن كان في شعره شواهد نحوية لا تخرج عن قواعد العربية الفصيحة.

-**المسلك الثاني**: سلك النقاد في العصر العباسي مسلكاً لم يسبقوا إليه؛ وهو مسلك علمي تمثل في وضع الكتب والمصنفات، وكان لتلك الكتب أثرها في جمع آراء الرواة والعلماء، فتباينت من حيث الموضوعات والمناهج والغايات، فبعضها انتهج في النقد منهجاً تاريخياً؛ على نحو ما فعل ابن سلاّم الجمحي في كتابه (طبقات الشعراء)، وابن قتيبة في كتابة (الشعر والشعراء)، والمرزباني في كتابة (معجم الشعراء).

كما عمدت طائفة من النقاد إلى قصر الدراسة على شاعر أو اثنين؛ على نحو ما فعل أبو الحسن الآمدي في كتابه (الموازنة بين الطائيين)، أو القاضي عبد العزيز الجرجاني (الوساطة بين المتنبي وخصومه).

أما بعض المصنفات الأخرى فقد سلك أصحابها مسلكاً فنّياً صرفا، فراحوا يدرسون طبيعة الفن الأدبي؛ شكلاً ومضموناً، فعاينوا أركانه وخصائصه على نحو ما فعل ابن طباطبا في كتابه (عيار الشعر)، وقدامة بن جعفر في مؤلفه (نقد الشعر)، وابن رشيق القيرواني في مؤلفه (العمدة)، وضياء الدين بن الأثير في (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر).

إن قيام الدولة العباسية أدى إلى انحراف الحياة العربية عن البداوة نحو التأثر بمظاهر الحياة الجديدة، فظهرت طائفة من الشعراء تأثرت بمظاهر الحياة الجديدة عُرفت بطائفة الشعراء المحدثين، إذ قادت حركة التجديد في أسلوب الشعر وبلاغته وصياغته، فكان لشعرائها بعض المعاني المستحدثة، ومن أبرز هؤلاء الشعراء (بشار بن برد، مسلم بن الوليد، أبو تمام، أوب نواس...).

[1] - بدوي طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي، ط6، دار الثقافة بيروت، لبنان، 1974، ص 129.

وقد دارت بين هؤلاء الشعراء المحدثين والشعراء المحسوبين على المذهب القديم معارك أدبية ونقدية عرفت باسم (الصراع بين القدامى والمحدثين)، فأفضى هذا الصراع إلى انقسام النقاد إلى طائفتين: طائفة تناصر الشعر القديم وتتعصب له على نحو ما كان يفعل الرواة وعلماء اللغة؛ من أمثال ابن الأعرابي (ت 341 ه)، في حين دعت طائفة أخرى إلى عدم التفريق بين القديم والمحدث، إلاّ بمقياس الجودة والفن.

ومن الذين نحوا هذا المنحى ابن قتيبة (ت 276 ه) الذي التزم الحياد حيال النص الأدبي، بغض النظر عن معايير السبق الزمني أو الحضرية. يقول ابن قتيبة:« ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كُلاًّ حظه... ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره »[1].

ومن الذين اشتغلوا بالنقد والأدب، وكان لهم الإلمام ببلاغة العرب وبيانهم وفنونهم الأدبية، أبو عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ (ت 255 ه)؛ إذ يُعدّ كتاباه (البيان والتبيين) و(كتاب الحيوان) من أهم الكتب التي تناولت فنون الأدب وأركانه، حيث حشد فيهم العديد من النصوص الأدبية وفنون الكلام، وأبدى رأيه فيها، مستشهداً بما يرويه من أقوال الرواة والمحدثين. وقد تميزت مؤلفاته بتلك السمة الموسوعية التي جعلت منه ناقداً فذاً واسع المعرفة، ضليعاًبالثقافة العربية والأجنبية، فكان« عظيم الخبرة، رحب العقل والتفكير، ومن هنا تزاحمت عليه الأفكار وتسابقت إلى قلمه، فحشد ما استطاع أن يسجل مما جال بفكره في كتاباته »[2].

وفي خضم تأليف الكتب النقدية والبلاغية، تخاصم النقاد في مفاضلاتهم بين الشعراء، وانعكس ذلك على النقد، فألف أبو بكر الصولي (ت 355 ه) كتابه (أخبار أبي تمام)، وألف الآمدي (ت 370 ه) كتابه (الموازنة بين الطائيين). وقد سار كلاهما على المنهج الموازن بين الشاعرين وبين قصائدهما. فالصراع المحتدم بين القدامى والمحدثين ألقى بظلاله على الحركة النقدية في العصر العباسي، مما حدا بكثير من النقاد على تحليل الشعر المحدث ومدارسته، على نحو ما فعل ابن طباطبا (ت 322 ه) في كتابه (عيار الشعر)، والقاضي عبد العزيز الجرجاني في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه).

ويذكر أن الآمدي في موازنته عاب على أبي تمام خروجه على عمود الشعر، وعدم التزامه بقواعده، كما رماه بالتكلف في الشعر، واستكراه المعاني والألفاظ، والمباعدة في التصوير. في حين استحسن شعر البحتري، لكونه قال الشعر بالفطرة، فظل مذهبه مطبوعاً على سنن الأوائل، فما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة.

---

[1] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص23.

[2] - بدوي طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي، ص 183.

ولما اختلف الناس في شعر المتنبي، دافع القاضي الجرجاني عنه في كتابه (الوساطة) مشيراً إلى وجوب الحكم على الشاعر بما أحسن وأجاد، ولا بما أساء. كما قام القاضي الجرجاني بدراسة مستفيضة لبعض الظواهر النقدية التي تداولها النقاد في عصره مثل: الغموض والسرقات... ليؤكد أثر الحضرية في ترقيق المعاني والألفاظ، كما توقف عند استنفاذ المعاني أمام المحدثين من الشعراء. وبخصوص مسألة السرقات الشعرية، أقرّ صاحب الوساطة بالتماس العذر للمتأخرين، منوّهاً بالسرق الحاذق الذي يحصل بالقلب والنقل والتحوير.

ومن القضايا الكبرى التي استرعت اهتمام النقاد والباحثين في القرن الرابع وما بعده، نظرية اللفظ والمعنى التي أثارها الجاحظ، حتى غدت مقدمات الكتب في النقد والبلاغة تفرد مباحث مطولة في هذه المسألة. وقد انفرد عبد القاهر الجرجاني بدراسة المسألة من زاوية نظم الكلام وترتيب معانيه، فركّز على آلية التأليف الشعري التي عدّها منطلقاً أساسياً لرصد مواطن الجودة في النص الشعري.

ولقد تميز عبد القاهر الجرجاني عن النقاد الذين سبقوه بأنه أسس لذوق جديد يقوم على جمالية النظم الذي يتوخى معاني النحو في قوانين اللغة الشعرية. يقول عبد القاهر:« إنه لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو »[1]. كما أشار أيضاً إلى جمالية اللغة الشعرية التي تنتج ما سماه بمعنى المعنى، وأنّ أيّ تغيير في البنية أو نسق الكلام، من شأنه تغيير المعنى، أو تبعثره.

وقد بدت نظرية عبد القاهر الجرجاني متكاملة تجعل من النظم مقياساً لجودة الكلام، مبيّناً أنّ إعجاز القرآن الكريم لا يتجسد بألفاظه أو معانيه، وإنما بنظمه. ولذلك عُدّت نظريته تحقيقاً للوحدة على مستوى العبارة، أو الجملة الواحدة.

ويرى الباحث محمد زكي العشماوي أن آراء عبد القاهر الجرجاني ذات أهمية نوعية في سيرورة النقد العربي من وجهة أنها عملت على:

* التوحيد بين اللغة والشعر.
* القضاء على ثنائية اللفظ والمعنى.
* القضاء على الفصل بين التعبير العادي والتعبير المزخرف، أو بين التعبير والجمال.
* وضع منهج لغوي تطبيقي في دراسة الأدب ونقده[2].

وخلاصة القول أنّ النقد تطور في العصر العباسي ليقترن بمستجدات الحياة العقلية والفكرية التي بلغها المجتمع العربي آنذاك. فراح النقاد يغرفون من الروافد الأجنبية، وظهرت مؤلفات اتسمت بنقدها الخيالي، حيث امتزج النقد بالدين والفلسفة، على نحو ما فعل أبو العلاء المعري في (رسالة الغفران)، والبحتري في (عبث الوليد).

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمد رشيد رضا، د ط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1978، ص238.
[2] - ينظر: محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص300.

وعموماً يمكن تلخيص أهم مميزات الحركة النقدية في العصر العباسي فيما يلي:

*اتساع حركة النقد النحوي واللغوي، بظهور النقد البياني الذي بحث في مقومات الصورة الأدبية، وعناصرها الجمالية.

* ظل النقد في العصر العباسي الأول يغرف من ذوق عربي خالص، لم تؤثر فيه الثقافات الوافدة. وقد تجلى هذا الاتجاه عند جماعة اللغويين والنحاة؛ كالخليل والأصمعي ويونس بن حبيب، ومن كانت لهم دراية بأسرار اللغة وأصولها.

* لاحظنا اعتماد الحركة النقدية على معايير الذوق والطبع، على الرغم من المؤثرات الأجنبية التي دعمت أسسه، ولكنها لم تقض على أصالته وسمات عروبته، على غرار ما وجدناه عند الآمدي في الموازنة، والقاضي الجرجاني في الوساطة.

* ابتداء من القرن الرابع خضع النقد لمقاييس المنطق والفلسفة، وغلب فيه العقل على الذوق، على نحو ما ألفناه في كتب الجاحظ وأبي هلال العسكري وقدامة بن جعفر.